المدح عند حسان بن ثابت و تأثيره في شعر شمس الدين غمغين و المفتي قوام الدين

الدكتور سيد عبد المجيد أندرابي *

لقد طلع في أفق الهند نجم ساطع في عام ١١١٤ هـ واشتهر بشاه ولي الله المحدث الدهلوي.جميع العلوم التي ظهرت في أوائل القرن الثاني عشر للهجرة من الثقافة و التاريخ و الدين و السياسة و الفلسفة ، كلها ينتمي إلي ذلك العالم الفذ و كان قلبه شغوفا بحب النبي صلي الله عليه و سلم يقول:

إذا مدحت رسول الله يوما فحاذر ان تقصرفى الثناء

فالحذر واجب علي من يمدح رسول الله صلي الله عليه و سلم حتي لا يعتريه نقص في المدح.

باخدا ديوا، ه باش وبامحمد هوش دار

فالمدائح النبوية فن من فنون الشعر وضعه كعب و حسان بن ثابت رضي الله عنهما، نما وأزدهر حتي أصبح صنفا بذاته. والحق أن الله أعطي النبي منزلة عالية حتى يعجز الإنسان عن مدحه.لذلك قال الشاعر أسد الله خان غالب :

غالب ثناي خواجه به يزدان گذاشتم

كان ذات پاك مرد به محمد دان است

كان حسان شاعر المدح في الجاهلية ثم صار شاعر

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية وآدابها الجامعة الإسلامية للعلوم والتقنية أونتي بورة، بلوامة، جامو وكشمير ص.ب:١٩٢١٢٢

الرسول صلي الله عليه و سلم و شاعر اليمن من بعده و قد عـــالج موضوعات عصره منها: فخر، حماسة، مـــدح و غيرهـــا. هـــذه الموضوعات تحتاج إلي ألفاظ جزلة وأسلوب متين و كان الشعراء في الجاهلية يستعملون التراكيب الغريبة و التعبيـــرات التقليديـــة و لكن الإسلام هذب شعرهم. لما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلي المدينة أسلم حسان مع الأنصار ودافع عن النبي و الإسلام بشـــعره و كان عبد الله بن رواحة وأبو سفيان وعمرو بـــن العـــاص قبـــل الإسلام يهجون الانصار و كان هجاؤهم يؤلم النبي صلي الله عليـــه وسلم فقال "ما بال أقوام ينصرون الله و رسوله بأسلحتهم فقط ولا بلسانهم". أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فقال حسان: أنا له يـــا رسول الله فلساني طويل و أخرج لسانه و مده إلي أنفـــه و قـــال : والله لو وضعته علي صخر لانشق.

لساني صارم لا عيب فيه و بحري لا تكدره الدلاء

و قد دافع عن الرسول صلي الله عليه و سلم حتي لقـــب " بشاعر الرسول ".و من أجمل المدائح النبوية قوله :

و أحسن منك لم تر قط عين وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرءا من كل عيـــب كأنك قـــد خلقت كما تشاء

و قال في هجاء ابي سفيان:

ألا أبلغ أبا سفيان عنـــي مـــغلغلة فقد برح الخفاء

وقال في نهاء القصيدة:

فإن أبي و والدي و عرضي لـــعرض محمد منكم وقاء

وكثير من الشعراء في كشمير قد حاولوا محـــاولات جيـــدة

في المدائح النبوية بالعربية منهم المحدث أنور شاه الكشميري ولكن هذه المحاولات لم تظهر لعامة الناس من تقلبات الدهر. أصدر السيد شمس الدين غمغين ديوانا علي منوال مدائح حسان بن ثابت وسماه "نور الأظهر". و فيه إثنان و سبعون بيتا و هو مرأة صافية للمدائح النبوية و المحاولة الثانية للمفتي قوام الدين و هي قصيدة " كبروية " وسأستعرض لها بالإجمال وميزة هذه القصيدة أن صاحبها سار فيها علي طريقة حسان وهؤلاء الشعراء يستحقون التقدير لأن قليلا من شعراء كشمير قالوا الشعر في المدائح النبوية باللغة العربية و الأدب العربي. قال محي الدين ابن عربي وهو شاعر صوفي و مفكر معروف في ديوانه "ترجمان الأشواق":

صح عند الناس أني عاشق غير أن لم يعرفوا عشقي لمن

وقد غير الإسلام تاريخ كشمير عند ما ورد إليها علي بن شهاب الدين الهمداني أول مرة في ٧٧٤ للهجرة ثم أتى إليها مرة أخرى في عام ٧٨١ للهجرة و معه نخبة من العلماء و المبلغين و أصحاب الحرف و الفنون و كان حاكم كشمير السلطان قطب الدين يعرف منزلته، قدره و أهميته فأيده و حث أصحابه على تبليغ الدين و ترويح الحرف و الصنائع في كشمير.

حضر الجد الأعلي لسادات أندرابي، مع السيد علي الهمداني إلي كشمير ومنهم شمس الدين غمغين المولود في رتني بورة بلوامة في ١٣ سبتمبر ١٩٠٤ الميلادي, تعلم الإبتدائية علي يد جده عبد الصمد ثم دخل في مكتب عمر شيخ و تعلم عنده القران والحديث و الفقه و الفارسية و ظهرت رغبته في الشعر و ألف عدة

كتب في العربية و الفارسية و الكشميرية و يـدور حـديثنا حـول الشعر العربي عنده و من أشهر مؤلفاته "جشـمه شـيرين" "شـمع روشن" "تعويذ القلوب" وغيرها والقصيدة العربية قد طبعت و لكـن لم يشتهر أمرها، و فيها اثنان وسبعون بيتا مدح فيها النبي صـلي الله عليه وسلم علي غرار حسان بن ثابت. الباحثون فـي كشـمير يمرون بالمؤلفات العربية سريعا دون التعمق مع أن هناك كثيرا من الكتاب لم تصل مؤلفاتهم إلى عامة الناس و لو تعمقنا قليلا لظهرت نتائج مثبتة عند إبراز مقدرات أهالي كشمير. من حسن حظي أنّـه ظهرت هاتان القصيدتان بجهدي المتواضع، قال غمغين في مطلـع القصيدة:

معزك يا بني ذو الـكبرياء فيحسن تحسينا انت وراء

والدين الحق يحي القلوب الميتة. وما أحسن ما قاله كاتـب شهير أحمد أمين "الدين الحق إكسير يحل في الميت ويحي".

ويقول غمغين:

فمن مزمل مدح لتوبتك و من مدثر وصف رداء

نلت رتبة ما لا لأحد لقد صلوا بخلفك أنبياء

وفي غزواتك نصر من الله ومن ايا فتحنا لك لواء

بحسنك أحسن التحسين صنفوا بجيرا، كعب، حسان براء

لذلك اشتهرت قصيدة حسان في العرب والعجـم وعملـت عمـل السيف:

و إن أبي و والدي و عرضي لعرض محمد منكم وقاء

لـسـاني صارم لا عيب فيه و بحري لا تكدره الدلاء

هجوت مـــحمدا فأجبت عنه و عند الله في ذاك الجزاء

و قد نظم شمس هذه القصيدة في مدح رسول الله صلي الله عليه و سلم بوجهة نظر خاص و إن كان يعتريـــه قصـــور فـــي تقطيع الشعر إلا أنها تدل علي شغوفة بالعربية و صحة فكره و لـــه كثير من المخطوطات المفقودة إلـــي الان و قســـم اللغـــة العربيـــة بجامعة كشمير يمكن له أن يعتني بها حتي يقدمها للناس و يكـــون ذلك زادا للباحثين و يعنيهم في ثرويـــة العطـــش العلمـــي و مـــن المؤلفات غير المطبوعة له "رموزات قران" و "شأن ذا القربـــي" و احوال الصالحين و غيرها.

و توفي غمغين في ٢٧ مايو ١٩٩٨ للميلاد و عمره ست و تسعون سنة و كان آخر ما تلفظ به:

كار من آخر شد كار زمن كاري نشد

والجهد الخطي الثاني في العصر الحـــديث هـــو قصـــيدة "كبروية" للمفتي قوام الدين الأعظم محمد شريف الدين وقـــد كتـــب هذه القصيدة في جمادي الثانية سنة ١٣٧٦ هـــ وعنـــدي نســـخة خطية منها وكتب فيها "أقدم هذه القصيدة إلي السيد محمـــد يوســـف كراله بوري بخالص التقدير وختمها بالتوقيع والقصيدة والقصـــيدة ليست من المدائح النبوية و لكنها في مناقب الشاه همداني وقد كتب بخط جميل مراعية البحور و الأوزان وفيها البحور والأوزان وفيها أربعة وثلاثون بيتا بأسلوب سهل ومن حيث الفصاحة والبلاغة فيها التشبيب الحسن ومن حيث البدائع ففيها إيجاز فريد بنوعيه:

علي عالي اعلي المـــــقام إمام الفضل صدر الاحتشام

خليفة مصطفي علما و عملا و تبليغا إلي خاص و عام
هو الهادي إلي دين قويـــم بعون المالك الملك الأنام
إمام العارفين شرقا و غربا أمين الشرق في جميع العظام
هو المنعوت في الولاة جمعا عظيم المن في دار العظام
هو الباني لدين الله سعيا سوي السيف و إلقاء السهام(٤)

والخلاصة أن الشاعر المذكور قد أحاط علي بـــن شـــهاب الدين الهمداني الملقب بعلي الثاني و بشخصيته العبقرية و جهـــوده في سبيل نشر الدين في كشمير , كل ذلك بأسلوب حسن و تعبيـــر جميل والأبيات الأتية تكشف لنا هذه الأمور:

هذا سبط أحمد بن بـــــتول سبية المرتضي بدر الكرام
دعوت الخلق نحو الحق فضلا جزاك الله خيرا من أنام
و أنت محسن أحسنت للناس نشكرك واجب عمر التمام
هلموا ايها الطلاب حـــــقا علي باب بآداب الكلام

و تعتبر هذه القصيدة إسهام كبير من المفتي قوام الدين في سبيل ترويج اللغة العربية و الأدب العربي في كشمير. و قد بـــذلت جهدي في إخراج هاتين القصيدتين و الحق أن هناك مئـــات مـــن المخطوطات المفقودة حتي الآن و قسم اللغة العربية يمكـــن لـــه أن يقوم بدور بارز في ترتيب هذه الشذرات و تهذيبها و أنـــا مســـتعد للتعاون معهم في هذا المجال.فإذا ظهرت هذه النوادرات فإن ثروتنا العلمية تكون شاهدة أعيان للمتأخرين.

المراجع:

١. أسرار الأبرار: شيخ داؤد

٢. آب كوثر: شيخ محمد أكرم، فيروز سنز، باكستان

٣. تاريخ اقوام كشمير منشي محمد الدين فوق، لاهور

٤. نور الأظهر: السيد شمس الدين غمغين، بلوامةكشمير

٥. دستور السالكين: علامة داؤد خاكي

٦. كشمير مين اسلام كي اشاعت: د سيج محمد عارف بخاري

٧. سير الأولياء: أمير خرد، دلهي

٨. كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر: إبن خلدون، بيروت ١٩٥٨

٩. خلاصة المناقب: ملا نور الدين بدخشي، مكتبة جامعة كشمير

١٠. ديوان حسان بن ثابت

١١. تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، دار المعرفة بيروت، لبنان

١٢. ديوان غالب اردو: غالب اكيدمي، دلهي

١٣. ديوان غالب فارسي: غالب اكيدمي، دلهي

١٤. قصيدة كبروية: المفتي قوام الدين، كشمير